

## الجزائر بعد الفتح الإسلامي : أشكال النثر الجزائري القديم

### فن الرسالة في الأدب الجزائري القديم

#### تمهيد:

بعد الفتح الإسلامي تعمّقت صلة المشرق بالمغرب وأصبحت "تسري في تراثه الغني والمتنوع ، بكل ملبساته الثقافية وأنماطه الفكرية. ولا أحد ينكر أن هذا الفكر ظل يمتاح في رؤاه وتصوراته من موروثه المشرقي الأصيل متفاعلا معه ومنفعلا به، متأثرا به ومؤثرا فيه. وإن انفتح على الثقافات المستحدثة الوافدة. يتجلى ذلك - أكثر ما يتجلى- في العلوم الإسلامية والشرعية والنصوص الأدبية والنقدية والدراسات الفلسفية والكلامية."1

لكن ليس للباحث الجزائري في حقل الأدب إلمام بالتراث الأدبي الجزائري القديم، بل نراه أحيانا يعرف عن الآداب الأخرى العربية والعالمية ، أكثر مما يعرف عن هذا التراث المحلي. والنتيجة أننا تركنا تراثا بأكمله بين رفوف المكتبات مهملا في طي الكتمان لا نعرفه ولا نعرف به . والجزء الأكبر منه تعرض للتوزيع والتشتيت. وتناثر في مكتبات المغرب ، تركيا اسبانيا ، فرنسا ...حتى أصبح البعض يعتقد بل يؤمن أننا أمة لا تنتج .

وحتى نتجاوز هذا التصور الذي أصبح شبه راسخ في أذهان الكثيرين ، من المستحسن أن نذكّر في هذا المقام بجهود الكثير من الأساتذة الباحثين الذين أخرجوا إلى النور جزءا من هذا التراث. حيث تضافرت جهود العديد من الباحثين المخلصين لهذا الوطن ولمرجعياته الثقافية والحضارية لتحقيق مشروع نهضوي يعيد الاعتبار لتراث هذا الوطن، من خلال ماتم جمعه وتصنيفه وتحقيقه ودراسته دراسة علمية . وعلى الصعيد الشخصي ننوي بدورنا أن ننفذ عن هذا التراث المحقق غبار الزمن كيما ننعشه ونبعث فيه الحياة مجددا. بدراسته دراسة منهجية.

في هذا المقام من المحزن أن نقول إن للجزائر تراثا أدبيا زاخرا وضع في زوايا الإهمال ومورس عليه الإقصاء ، حيث ظل مبعثرا لم يجمع. و القسم الأكبر منه

مخطوط لم يطبع بعد. وتذكر العديد من الدراسات أن الأوربيين استولوا على قسم من هذه الآثار الأدبية واقتنوها. وينقل "محمد حاج صادق" في مقال له كتبه باللغة الفرنسية عن الشيخ عبد الحي الكتاني أن المؤلفات الأدبية الجزائرية التي تضم عددا كبيرا من التراجم والآثار العلمية قد نقلت إلى تونس وأوربا والقسطنطينية عن طريق المهاجرين وممثلي القناصل الذين كانوا يشترون الكتب وبيعتون بها إلى بلدانهم . وهناك عائلات جزائرية متأصلة في العلم والثقافة العربية تستحوذ على عدد من المدونات والوثائق الجزائرية القديمة على سبيل الاحتكار ، مثلما تحتفظ عدد من الزوايا ببعضها أيضا.

يبدو أن هذا الإهمال الذي أصاب الأدب الجزائري القديم هو ما جعل إخواننا العرب في المشرق يعتقدون اعتقادا خاطئا ينفي أن يكون للجزائر نتاج أدبي عربي. ولمواجهة هذا الاعتقاد المزعوم نتوخى رد الاعتبار لهذا الأدب من خلال الاشتغال على الأقل على المعلوم و المحقق منه. بقصد الكشف عن خصوصياته وكيفية اشتغال خطاباته ،ربما محونا الشبهات التي علقنا بأذهان كثير من الباحثين في حقل الأدب العربي .

لقد أسهمت الجزائر بنشاطاتها الثقافية في إطار حضارة العالم العربي ولأدبائها ومفكراتها و علمائها مكانتهم قديما وحديثا . لذا يصبح من الواجب علينا إبراز شخصية الجزائر الثقافية بما تحمله من علامات خصبة تنتظر من يفعلها. وقد قادنا الاهتمام بهذه الذاكرة الثقافية إلى الوقوف عند الفنون الجزائرية القديمة بتعدد أشكالها : كتب التراجم ، السير - المقامات، الرسائل و الرحلات ... وحاليا تستقطب هذه الفنون الكتابية العديد من النقاد و المهتمين نظرا لثرائها وتنوعها وارتباطها بأنساق ثقافية وتاريخية.

### فن الرسالة في الأدب الجزائري القديم:

إن الأدب الرستمي -على عهد الدولة الرستمية (160هـ-299هـ)- الذي يبدأ منه التاريخ للأدب الجزائري العربي القديم إنما ينبغي أن "يقاس على مقاس ذلك الزمن في ذلك المكان الذي كان حديث العهد بنور الحضارة العربية الإسلامية."2 وعلى قلة المادة النثرية التي وصلتنا على هذا العهد، فإن ما عثرنا عليه من رسائل مبنوثة في المصادر القديمة يدلّ على أن هذا النوع من النثر كان متداولاً

مألوفاً وقلة وصوله إلينا لا يعني بالضرورة عدم وجوده. إنما مرد ذلك إلى عدم توثيقه ، كما هو الشأن في البدايات الأولى لكل ما هو قديم .

ينتمي فن الترسل لفضاء الثقافة العام وهو يستجيب في فاعلية إنتاجه لأنظمة التعامل ويحافظ على أخلاقياتها .تهيي الرسالة "إمكانية اللغة وقابليتها البلاغية ما يضيء رغبة صاحبها في استجابته للأنظمة و الأعراف التي يعتمدها الترسل في وزمان ومكان معينين. " 3

ومثلما تكشف الرسالة صورة بيّنة عن مرسلها فإنها تحافظ في مهمتها الاتصالية على صورة متلقيها "حيث تختلف وتتغير شفراتها السوسيو-ثقافية واللسانية باختلاف منزلة المتراسلين ومكانتهم، في إشارة صريحة منها لارتباطها بأنظمة الثقافة وآلياتها" 4 .

جمع لنا سليمان الباروني في كتابه : الأزهار الرياضية بعضاً من النصوص الرسائلية التي صدرت غالباً عن أميرين اثنين هما :أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وابنه محمد بن أفلح بن عبد الوهاب. هذه الرسائل تعدّ جزءاً من التاريخ لأنها تسرد تفاصيل تاريخية معينة.

### 1- الحضور النصي لرسائل أفلح بن عبد الوهاب:

يعد أفلح بن عبد الوهاب من أكثر الحكام الذين استثمروا فن الرسالة للتأسيس لدولته وبسط نفوذها السياسي على الرعيّة والمعادين له. وقد أورد سليمان الباروني رسائل معدودة لهذا القائد المحب للعلم والحاث عليه، و على قلة عددها، إلا أنها تعطي صورة لابأس بها عن نسق الحياة على أيامه.

### - دواعي الرسالة:

ترتبط هذه الرسالة بواقعتها السردية. التي حدّدها المرسل في رسالته. تحقّق عبر ارتباطها بواقعتها تلك صورة أولى لحضورها. "إنها تتحرك وتحرك واقعتها معها". ويظهر ذلك من خلال البنى الكبرى المتمظهرة في النصّ : التصدي للبدع ، وكذا البنى الصغرى التي تؤسس فقرات الرسالة وتؤلف بين أجزائها وتجمع مفاصلها المختلفة. ويمكن تحديدها في المحاور التالية:

-الافتتاح بقصة الرسول الكريم مع الأمانة.

-توجه أفلح بن عبد الوهاب إلى جموع المسلمين ممّن هم تحت إمارته بالخطاب.

-حث مخاطبيه باللين على اتباع السلف الصالح.

-أمره إياهم بالقوة على مقاتلة أصحاب البدع.(تحميلهم مسؤولية ذلك كاملة).

-توعّد أصحاب البدع.

-المقاربة بين أصحاب البدع وبين الشيطان في الكبر. فمآلهم جهنم لا محالة.

-فوز المنتصرين عليهم من المسلمين بالجنة ورضوان الله.

### ب - مقامات التخاطب في الرسالة:

في هذه الرسالة المنتخبة تنتظم مستويات التخاطب بين متخاطبين حقيقيين : المرسل وهو الكاتب الحقيقي (من أفلح بن عبد الوهاب ) – نحو ( المرسل إليه) : "إلى من بلغه كتابنا من المسلمين ".دون أن يستثني المرسل أحدا من المسلمين.

إذن يحقق أفلح حضوره المعنوي بحضور اسمه. مما يعني أن الرسالة ستحلّق بعيدا لدى خروجها من حدود الفرد إلى أفق الجماعة لتؤمن حضورا للآخر لا يغيب إلا بغياب الرسالة وانقطاع أثرها. من هنا تغدو الرسالة ذات قيمة تداولية تحوّل المكتوب إلى مشافهة، لدى خروجها إلى فضاء التلقي الواسع. وهي بذلك إنما تقدم صورة عن مرسلها كما تحافظ في مهمّاتها الاتصالية على صورة متلقيها.

وتأتي صورة المتكلم (أفلح) لتضبط إيقاع السرد، المؤسس بدءا على الإبلاغ مؤكدة أفضلية علمه وتفوقه بهذا العلم.كاشفة موقعه في المجال التاريخي لرسالته. دون أن تضطر إلى تضخيم اسمه بما يسنده من صفات مؤشرة على مقامه: كالأمير أو السلطان أو القائد...إلى غيرها من الصفات التي قد تعمّق درجة الرهبة لدى الرعية.

إن تخلي المرسل أفلح عن صفة مقامه واكتفائه باسمه العلم فقط، يقوي توطيد علاقاته برعيته ويعززها. ويصبح التلقي قائما هنا على الرغبة والقبول وليس على الإكراه والعنف.

يتغيّر ضمير المخاطب في الرسالة بحسب مقام التلّفظ ، حيث يلجأ المرسل إلى ضمير الجمع مع تدبيجه الرسالة. هنا "استعمال الضمير نحن مبرر في الظاهر باندرج حرمة الفرد في نشاط الجماعة".<sup>5</sup> في المقابل نقف على ندرة استعمال الضمير المتكلم المفرد، مما يكشف تخرج المرسل "من تصوير ذاته و إبراز حضوره من حيث الأفعال والأقوال و الأحاسيس .فهو يتخفى باستمرار وراء صيغة الجمع."<sup>6</sup>

يوجه المرسل خطابه من موقع معين معلوم ، أي أنه يضبط المسافة ويعمل على تحديدها بينه وبين رعيته. فهو العارف المحيط وهو مصدر الإبلاغ . وفي تحديده لمكانته تتحدد مكانة المسرود لهم. فهم الأقل دراية و الأقل فطنة لما يحاك من وشايات ضد الدولة الرستمية. هذه المسافة تبقى على حالها طول مدتي الإبلاغ والإقناع لتتقلص نهائياً لدى استشعار المرسل أن خطابه أدى مهمته الإبلاغية فنتقارب الرتبة بينه وبين من إليهم يتوجه بالخطاب .ليقول بضمير المتكلم المفرد وعلى مقربة من نهاية الرسالة "وقد بالغت إليكم في النصيحة وشرحت لكم الموعدة ورضيت لكم بما رضيت به لنفسي ونهيتكم عما نهيت به نفسي"<sup>7</sup>. وهو بذلك يعيد ترتيب العلاقة بينه وبين رعيته لإدراكه حاجة متلقيه إلى هذه العلاقة اللينة بعد كثافة جرعة التحذير والوعيد التي صدرت عنه. فقد بدأ باللين في مخاطبة جموع المسلمين الذين يتوجه إليهم بالخطاب ، ثم انتقل إلى التحذير من المبتدعين الذين من أجلهم تمّ تدبيج الخطاب حيث توعدّهم بالقتال .ليعود من جديد إلى رعيته مخاطباً إياهم بخطاب شديد اللهجة حاثاً إياهم على ضرورة تحمل الأمانة . "واعلموا أن من كان كهذا فقد صار من حزب الشيطان"<sup>8</sup>. وسرعان ما تحوّل هذا الخطاب نحو اللين لدى توظيفه لنسق لغوي مختلف عن النسق السابق حيث تكثف بمعجمية خاصة : الفوز بالجنة ، رضوان الله....

وهنا ينغلق خطاب الرسالة الموجه إلى الرعية الذي كانت افتتاحيته متماثلة مع خاتمته وعمقه خاص بالتحذير من أصحاب البدع حتى لا يخسر المرسل متلقيه.

يلاحظ قارئ الرسالة أن الذات المتلظفة تستحضر السياقات الدينية الخارجية للخطاب مستغلة إياه في إقناع المتلقين وتحقيق منفعة آنية. بل وتتدرج بالمتلقين من رتبة إلى أخرى في إستراتيجية سلسلة توقع المتلقي في غواية السرد المتحرك تحت

مقولة: "كل بدعة ضلالة وكل ضلالة كفر وكل كفر في النار". يقول: "فاحذورا معشر المسلمين من كانت هذه صفته". 9 تعمل الرسالة هنا على تأمين اللحمة داخل نسق المجتمع فتلفظ تلقائيا الذي يشوش على استتباب أمنها.

نشير أن الاستناد إلى هذا الخطاب المباشر تمّ مرة واحدة في الرسالة في الموضوع المدرج أعلاه. ونفترض أن تمظهر إبليس في هذا الخطاب بالضمير المتكلم المفرد يأتي ليفضح غبائه وكبره. فمتى كانت النار أفضل من الطين؟ حيث نلتمس استعلاء إبليس وتضخمه بهذا الضمير. ونعتقد أن هذا الاستعلاء بالضمير أنا جعل المرسل يتحاشى توظيفه لأن مقام المرسل مقام تواضع. والمرة الوحيدة التي وظف فيها أفصح الضمير المفرد المتكلم كان تواضعا منه، حيث سهل له هذا الضمير المتكلم المفرد "أنا" الاندماج مع الرعية حين قال: "وقد بلغت إليكم في النصيحة وشرحت لكم الموعدة ورضيت لكم بما رضيت به لنفسي ونهيتكم عما نهيت به نفسي".

عرضت الرسالة صفات أهل البدع (الديني) : ملازمتهم الشيطان -الابتعاد عن مجالس العلماء- الكبر وعدم محاسبة الذات- إشاعة الفتوى الباطلة في أقوام جهلة.

على مستوى آخر عرضت الرسالة قصة آدم مع إبليس على النحو المعروف في القصص القرآني(الديني) : الكبر -الهلاك -إلحاق الضرر بالنفس..

وتتسرب مع هذا التدرج في السرد انتقال طاقة من المرسل باتجاه المتلقين لا تنتهي بانتهاء الرسالة بل تتعمق لدى انتهائها. وهي الغاية التي يتوخاها الخطاب لأن بقاء " أفصح " ببقاء رسالته، بل إن بثّ الرسالة في أوساط المسلمين تعكس الرغبة في بقاء الحكم ثابت الأركان..

نشير إلى أن حدود الخطاب السياسي لا تنحصر في الفعل اللغوي فقط. بل تتعداه إلى مجمل الإمكانيات التي تسمح بتوجيه رسالة ما بغرض التأثير وحمل المتلقي على اتخاذ موقف إزاء قضية ما . إذن يسترشد هذا الخطاب قوته هنا من متانة منطق السرد الذي يعتمد الحجاج. لأنه خطاب إقناعي بامتياز يروم التأثير في المتلقين لحملهم على اتخاذ موقف أو ربما إعادة النظر في فهمهم لموقف ما.

والمقصدية محافظة "أفلح" على حكمه من الزوال من بين يديه بتحريض المسلمين للتصدي للمخالف المبتدع ، وهو بذلك يؤمن الحماية لمشروعه الإيديولوجي ويغطي عليه بالمسلمين لأنهم هم الجند الأكبر. والبدع والدسائس إنما تنتشر فيهم. ومن يتخلف عن أداء هذه المهمة فهو من الخاسرين ، بل هو من المغضوب عليهم إلى يوم يبعثون.

#### الهوامش :

1- المؤدب (محمد الأمين)، حوار المشرق والمغرب وجدلية الأصل والفرع - قراءة في تراثنا البلاغي القديم. ضمن: البلاغة والخطاب إعداد وتنسيق: مشبال (محمد)، الرباط ، دار الأمان ، منشورات ضفاف ، الجزائر، منشورات الاختلاف.(ط.1)، 2014،

2- مرتاض(عبد المالك)، الأدب الجزائري القديم

3- حمزة عباس (لؤي) ، بلاغة التزوير -فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم -لبنان ، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، منشورات الاختلاف (ط.1)، 2010،

4- بنخود (نور الدين)، الذاتية في بعض أجناس النثر العربي القديم، ضمن: المتكلم في السرد العربي القديم، ضمن: المتكلم في السرد العربي القديم

5- الباروني (سليمان)، الأزهار الرياضية،ص.104.

6- حمزة عباس (لؤي) ، بلاغة التزوير -فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم -لبنان ، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، منشورات الاختلاف (ط.1)، 2010،

